

تيماء : خواطر غابرسبيل *

في طريق عودتي من دمشق خلال أيام عيد الفطر المبارك، مررت بمدينة تيماء الأثرية، وعندما كنت أجوب بسيارتي أنحائها المكتضة بالخرائب والآثار كالدرب وخبراء وغار الحمام، أهدق ببصري في تلال (براق المربع) و (فاو الطليحة)، أخذت أسائل نفسي: لماذا — ياترى أختير هذا المكان بالذات لتقوم فيه أعظم مدينة تاريخية وحضارية في المنطقة؟ وهل صحيح أن نابونيدوس Nbnidus الملك البابلي الذي وصل إليها سنة ٥٥٢ قبل الميلاد وسكنها لمدة عشر سنوات كان أول من بناها وسورها واتخذها مقراً لحكمه؟ أما عن التساؤل الأول فبعد جولة في أرجاء المدينة خرجت برأي وهو أن موقعها الصخري المتاخم للنفود الكبير والواقع على طريق القوافل التجارية التي كانت تعبر المنطقة بين الحجاز وخليج العقبة والبراء ومنها إلى بابل ومصر والشام، قد جعل من المكان موقعاً استراتيجياً صالحاً لقيام بعض المباني الحصينة والتي تطورت فيما بعد إلى حصون شامخة ومعقل باذخة تكاد تفصح عنها تلك التلال الضخمة والأنقاض المتناثره في مساحات تقدر بثلاثة كيلو مترات مربعة.

أما عن المقولة التي تقول إن نابونيدوس كان أول من اختط المدينة وسورها وسكنها، فهي في نظري مقولة غير علمية ولا منطقية، وقد تفرد بها البروفسور رايس D.S.RICE مكتشف نقش حران ثم ردها من جاء بعده من المستشرقين السطحيين، وأكبر برهان على بطلانها ما تحدث عنه الملك نابونيدوس نفسه في نقشه المعروف بنقش حران الذي اكتشفه البروفسور رايس نفسه سنة ١٩٥٦ ونشره C.J.Gadd مترجماً في الجزء الثامن من مجلة Anatolian

(٥) قُدم مجلة الحرس الوطني ولم ينشر حتى الآن.

Studies بعنوان (The Harran Inscription of Nabonidus) إذ قال: «لقد خبأت نفسي عن مدينتي بابلين ، وها أنا في طريقي إلى تيماء دادانو ويدكو وخيبرو ويتربوا عشر سنوات قعدت ثم إلى مدينتي بابلين، رجع، ومن هذا النقش يتضح لنا أن الملك نابونيدوس ما جاء إلى تيماء لينبئها وإنما جاء ليختبئ فيها، فالحروب التي كان يشنها قورش ملك فارس لاكتساح العالم قد حملت بونيدوس على أن ينجو بنفسه بعيداً في أرض تيماء، ولكن أميرها العربي (ملكو) كان ضحية هذا اللجوء الملكي فقد أسره نابونيدس وهو يدافع عن مدينته (تيماء) ثم أمر بقتله، كما كانت دادان وفدك وخيبر ويثرب لقمة سائغة لجنوده الأفاقيين من اليهود الذي جاءوا في ركبته.

وتقول مستندات نابونيدوس إن ابنه (بلشازر) الذي جاء ذكره في سفر الملوك كآخر ملك بابلي، قد أمر قورش بذبحه عند احتلاله لبابلين، الأمر الذي وقع في مصيدة قورش بذبحه عند احتلاله لبابلين، الأمر الذي دفع نابونيدوس إلى مغادرة تيماء ليناجز الفرس القتال، ولكنه لم يلبث أن وقع في مصيدة قورش الذي لم يتوان عن ذبحه هو الآخر، ولسدني سميت بحث مستوفي عن قصة نابونيدوس وسقوط دولته في يد قورش في كتابه:

Sidney Smith: Babylonian Historical Texts, london 1929.

وقد ترك نابونيدوس في (تيماء) عدداً من الآثار منها قصر (مارد) الذي كثيراً ما جاء ذكره في الشعر الجاهلي والذي يعرف مكانه عند السكان حالياً بقصر (زلوم) كما ترك لنا أثراً ثقافياً هاماً، هو ذلك النقش الأرامي الذي عثر عليه الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر Charles Huber سنة ١٨٨٣م بحائط أحد بيوت تيماء، ولم يفطن إلى أنه قد ظفر بإهم تراث عربي إلا عندما وصل إلى باريس ليقرأ فيه العلماء نصاً تاريخياً عربي اللغة أرامي الكتابة، يكشف كثيراً من أسرار الديانة الوثنية التي كان الأكاديون والعرب يشتركون في طقوسها وشعائرها، وهي عبادة صلح هجام، صلح محرم، صلح شزاب، ويعتبر النقش من أهم مقتنيات متحف اللوفر في باريس، ويعرف عند المؤرخين بحجز تيماء، وله نسخة جصية بمتحف الخط العربي دمشق.

ومن البراهين الهامة على قدم (تباء) عن عصر نابونيدوس أن اسمها جاء في نقش لتيكلات بلاسر ملك آشور والذي حكم سنة ٧٤٧ إلى سنة ٧٢٧ قبل الميلاد، كما جاء ذكرها في التوراة كحاضرة بني إسماعيل، وجاء في تاريخ الطبري، وردده ابن خلدون في مقدمته أن ملكها الأرقم عاصر موسى عليه السلام .

وقرأت اسم تباء كمدينة كهنوتية سياسية في النقش الأرامي الهام الذي عثرت عليه إدارة آثار المملكة بالمنطقة في خريف ١٣٩٨ هـ وهو في نظري أقدم من نقش حجر تباء سالف الذكر.

ومن أهم من زار تباء وكتب عنها من المستشرقين : دوتي وهوبر وموسل، اما دارسو نقوشها فجوسن وسافيناك وفلبي ، وقد تمكن الآخر من الوصول إلى قمة جبل غنيم الذي يبعد عن تباء جنوباً مسافة اثني عشر كيلو متراً واطلع على آثار معبد هناك.

وبالاطلاع على مانشره كل من هوبر في كتابه: «رحلة إلى بلاد العرب» وفلبي في كتابه: (أرض مدين) من النقوش المتعددة الأساليب والمختلفة الهويات نجد أن (تباء) قد عاشت حضارات متعددة : أراميه ودادانيه وحيانية ونبطية، كما كانت محوراً لعدة حروب اشتركت فيها قبائل سموى إل وماسا ونبايات ودادان.

ولهذا فلن أكون مبالغاً إذا قلت إن (تباء) كانت واحدة من مدن الجزيرة العربية القديمة التي عاصرت معيناً وشبوة ورجمت وآشور وبابلون، ولعبت دوراً هاماً في تاريخ الجزيرة السياسي والثقافي والاقتصادي.